مستقبل الأنثروبولوجيا في ظل التحديات الراهنة

أ. د. على محمد المكاوي(*)

- **مُلخص:**

تنشغل الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان منذ بدايتها وحتى الآن، وتركز على بنائه الفيزيقي البيولوجي (الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية)، وعلى بنائه الاجتماعي وخصائصه وملاحمه ونظمه وقواعده الاجتماعية التي يتعايش بها ومعها الناس، وينظمون حياتهم كجماعات (الأنثروبولوجيا الاجتماعية)، وتركز أيضا على دراسة البناء الثقافي بما يتضمنه من عادات وقيم وأعراف وآداب وسنن ومعتقدات وصناعات وحرف وأدوات وطرق وغيرها (الأنثروبولوجيا الثقافية). علاوة على تلك الفروع التقليدية، هناك الفروع الحديثة كالأنثروبولوجيا الطبية والتربوية والاقتصادية والسياسية والتنموية والريفية والحضرية وغيرها.

وقد هدفت الدراسة الراهنة إلى تسليط الضوء على ملامح تطور البحث الأنثروبولوجي خلال القرن التاسع عشر، والإسهامات الأنثروبولوجية خلال القرن العشرين. ثم التطرق إلى الحديث عن ملامح الأنثروبولوجيا في الألفية الجديدة. كما تناولت الدراسة الحديث عن التحديات المعاصرة والتنوع الثقافي، والإشارة إلى التحديات النظرية في تفسير الظواهر الاجتماعية المستحدثة. كما ألقت الدراسة الضوء على تحديات المستقبل المحتمل أن تواجه الأنثروبولوجيا فضلاً عن تحديات التغيرات المناخية.

الكلمات المفتاحية: الأنثروبولوجيا؛ المستقبل؛ التحديات؛ التغيرات المناخية. الإسهامات الأنثروبولوجية.

(*) أستاذ علم الاجتماع والانثروبولوجيا. كلية الآداب – جامعة القاهرة.

The Future of Anthropology in light of The Current Challenges

Prof. Ali Mohamed El-Mekawi

- **Abstract**

Anthropology is concerned with the study of man from its beginnings until now, and focuses on his physical and biological structure (physical or natural anthropology), and on his social structure, characteristics, epics, social systems and rules by which people coexist and organize their lives as groups (social anthropology). It also focuses on studying the cultural structure, including customs, values, customs, etiquette, traditions, beliefs, industries, crafts, tools, methods, etc. (cultural anthropology). In addition to these traditional branches, there are modern branches such as medical, educational, economic, political, developmental, rural and urban anthropology, and others.

The current study aimed to shed light on the features of the development of anthropological research during the nineteenth century, and anthropological contributions during the twentieth century. Then, it touched on the features of anthropology in the new millennium. The study also addressed contemporary challenges and cultural diversity, and pointed out the theoretical challenges in interpreting emerging social phenomena. It also shed light on the challenges likely to face anthropology in the future as well as the challenges of climate change.

Keywords: Anthropology; Future; Challenges; Climate changes. Anthropological Contributions.

- **مقدمة:**

تنشغل الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان منذ بدايتها وحتى الآن، وتركز على بنائه الفيزيقي البيولوجي (الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية)، وعلى بنائه الاجتماعي وخصائصه وملاحمه ونظمه وقواعده الاجتماعية التي يتعايش بها ومعها الناس، وينظمون حياتهم كجماعات (الأنثروبولوجيا الاجتماعية)، وتركز أيضا على دراسة البناء الثقافي بما يتضمنه من عادات وقيم وأعراف وآداب وسنن ومعتقدات وصناعات وحرف وأدوات وطرق وغيرها (الأنثروبولوجيا الثقافية). علاوة على تلك الفروع التقليدية، هناك الفروع الحديثة كالأنثروبولوجيا الطبية والتربوية والاقتصادية والسياسية والتنموية والريفية والحضرية وغيرها.

وقد اختطت الأنثروبولوجيا لنفسها منهجاً متميزاً عن باقي العلوم الاجتماعية تمثل في الدراسات الحقلية لمجتمعات صغيرة الحجم، بسيطة التركيب، متجانسة السكان والنشاط الاقتصادي. ويعمد فيها الباحث الإقامة الطويلة في المجتمع البسيط المدروس، يستخدم لغة الأهالي المحلية، ويعتمد على الملاحظة، والملاحظة المشاركة، وعلى المقابلات المتعمقة، ويستند على أدوات منهجية مساعدة له كالإخباريين والوثائق والتصوير الفوتوغرافي والتسجيل الصوتي والآثار والحفريات وما تسفر عنه لاستكمال حلقات التأريخ لحياة الإنسان الاجتماعية والثقافية والفيزيقية.

كما اعتمدت الأنثروبولوجيا على نظريات تقليدية كالتطورية والانتشارية والوظيفية والاتصال الثقافي والتغير، وانتقلت إلى الاعتماد على نظريات حديثة كالبنيوية والحداثة وما بعد الحداثة، والنظرية النقدية، ومدرسة فرانكفورت، والنظرية النسوية وغيرها. وانطلقت الأنثروبولوجيا كذلك من دراسة المجتمعات البسيطة والبدائية والأحراش والجزر المنعزلة، إلى دراسة المجتمعات الريفية والحضرية والصناعية، مع النصف الثاني من القرن العشرين. بل امتد اهتمامها المعاصر نحو دراسة المجتمعات العمرانية الجديدة والتخطيط الحضري، والقضايا اللغوية، والسكانية، والتنموية، والصحية وغيرها. ومع هذا التوسع، صارت تواجه تحديات معاصرة تختلف عن التحديات التقليدية التي كانت تواجهها على مدى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وبدأت الألفية الجديدة لتتغير

الملامح النظرية، والمنهجية، والمجالات الدراسية والميدانية، حينئذٍ تظهر العولمة والرقمنة والهيمنة الأمريكية على العالم، لتتشكل فروع جديدة في الأنثروبولوجيا، وتظهر معها تحديات جديدة تتطلب حلولاً ومسارات ملائمة تحافظ على العلم، وتخط له ملامحه المستقبلية، وهذا مجرى الاهتمام الحالي.

وفي ضوء هذه المقدمة، يتناول البحث العناصر التالية:

أولاً: تطور البحث الأنثروبولوجي خلال القرن التاسع عشر.

ثانياً: الإسهامات الأنثروبولوجية خلال القرن العشرين.

ثالثاً: ملامح الأنثروبولوجيا في الألفية الجديدة.

رابعاً: التحديات المعاصرة والتنوع الثقافي.

خامساً: التحديات النظرية في تفسير الظواهر الاجتماعية المستحدثة.

سادساً: تحديات المستقبل.

سابعاً: التحديات البيئّية (الأنثروبولوجيا الفيزيقية وعلم وصف التربة).

ثامناً: تحديات التغيرات المناخية.

أولاً: تطور البحث الأنثروبولوجي خلال القرن التاسع عشر.

١- منهج البحث الأنثروبولوجي في الدراسات الباكرة:

ارتبط مفهوم الأنثروبولوجيا في الأذهان بدراسة الشعوب البدائية، نظراً لأنه كان يقصر اهتمامه عليها، علاوة على أن الأنثروبولوجيين الأوائل كانوا يستقون مادتهم العلمية من تقارير الرحالة والمبشرين والإداريين والهواة والتجار، وبالتالي فلم يكونوا يعتمدون على أنفسهم في جمع المادة العلمية، ولم يكونوا يستخدمون الملاحظة المباشرة للمجتمع والثقافة محل الاهتمام. ومن هنا تضاربت آراؤهم حول الإنسان البدائي وثقافته، فتارة يصفونه بالهمجي والحيوان المتوحش، ويصفون حياته بالفقر والعدوان والخوف. ويصفونه تارة أخرى بأنه إنسان رقيق مهذب، يعيش حياة الرخاء والسلام والدعة. وقد سادت هذه النظرات المتضاربة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ومنذ منتصف القرن الثامن عشر، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، ذاعت كتابات الفلاسفة الأخلاقيين وبدأت تظهر الكتابات الأنثروبولوجية بالمعنى الدقيق للكلمة. وهنا تراكمت المعلومات حول الشعوب البدائية وشعوب الشرق الأقصى، وزاد المد الاستعماري الأوروبي لأمريكا، والبريطاني للهند، واستوطن المهاجرون الأوربيون في كل أستراليا، ونيوزيلاند وجنوب أفريقيا. وقد بدأ الوصف الإثنوجرافي لشعوب هذه المناطق كلها يتخذ طابعا جديدا يختلف تمام الاختلاف عن أقاصيص وحكايات الرحالة، ويظهر في شكل دراسات مفصلة على أيدي المبشرين والحكام هناك. فقد كان أمامهم فرص أفضل للملاحظة، علاوة على أنهم كانوا أوسع أفقا وأكثر ثقافة من رحالة العصور السابقة. وبالتالي تمثل هذه الفترة نقطة البداية في محاولات تطبيق المنهج في الدراسات الأنثروبولوجية.

٢- الملامح المنهجية الفارقة في النصف الثاني من ق١٩:

واستمر الحال على ذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر، حيث اكتشف العلماء إمكانية تطبيق المنهج العلمي في بحوثهم عن طريق الدراسة الميدانية Field work التي تتمثل في ملاحظة الواقع الاجتماعي مباشرة، أي يقوم الباحث نفسه بجمع المعلومات بطرق بحث معينة، ثم يقوم بتحليلها(١).

ولكننا نلاحظ وسط هذا المناخ أسلوبا منهجيا جديدا بجمع بين التدقيق في جمع المادة وعمق التحليل من ناحية، والاعتماد على المبشرين والحكام في جمع المادة الميدانية من الواقع الاجتماعي في المجتمعات البدائية والبسيطة من ناحية أخرى. وتمثل ذلك في بعض الدراسات القليلة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال ما يمكن تسميته بأسلوب **(الاستكتاب)**، حيث يقصد الباحث بعض الهواة والمهتمين بالتراث أو النظم الاجتماعية السائدة ليطلب منهم كتابة تقرير مفصل عن موضوعات يحددها لهم في صورة عناصر وأسئلة مفصلة تتطلب الإجابة عليها(٢). وفي نفس الاتجاه يوجد أسلوب آخر يتمثل في أن يرسل العلماء من أوطانهم **قوائم تحوي أسئلة** عن المعلومات التي يريدون الحصول عليها إلى الأشخاص المقيمين بين

الشعوب البدائية ليجيبوا عليها. وأول تلك القوائم هي القائمة التي وضعها لويس مورجان L. Morgan لاستنباط مصطلحات القرابة وإرسالها إلى المبعوثين الأمريكيين في البلدان الأجنبية. وقد اعتمد على إجاباتهم في تأليف كتابه المشهور Systems of consanguinity and Affinity of the Human Family الذي نشر في عام ١٨٧١. ثم وضع جيمس فريزر J. Frazer بعد ذلك قائمة أسماها Questions on the – Manners, Customs, Religion, Superstition etc. of Uncivilized or Semi – Civilized people وأرسلها إلى كثير من الناس في كل أنحاء العالم. وحصل بذلك على كثير من المعلومات التي ضمنها كتابة (الغصن الذهبي) The Colden Bough[٣]. والذي يرجع نشره بين عامي ١٨٨٠ و١٨٩٠. ولكن أكثر هذه القوائم شمولا واستيعابا هي قائمة Notes and Queries on Anthropology والتي نشرت لأول مرة عام ١٨٧٤ لحساب معهد الأنثروبولوجيا الملكي بإنجلترا. وبالإضافة إلى ذلك كان العلماء يتراسلون مع هؤلاء الأشخاص الذين عرفوا أولا من خلال طريقة كتاباتهم (الاستكتابية). فكان لويس مورجان يراسل فيزون وهاويت Fison & Howitt في استراليا. كما كان فريزر يراسل بولدوين سبنسر Baldwin Spencer في استراليا. وروسكو Roscoe في أفريقيا.

ثانياً: الإسهامات الأنثروبولوجية خلال القرن العشرين.

ثم توالت بعد ذلك الدراسات الميدانية في علم الأنثروبولوجيا، فكانت أول دراسة ميدانية هي الدراسة التي أجرتها بعثة هادون Haddon لمنطقة مضايق توريس في المحيط الهادي في عامي ١٨٩٨ و ١٨٩٩[٤]. وظلت البحوث والدراسات تترى بعد ذلك تباعا، وهي تحاول تطبيق المنهج العلمي بقدر المستطاع.

وجاءت دراسة رادكليف براون Radcliff Brown لسكان جزر الأندمان Andaman Islands بالمحيط الهادي ما بين عامي ١٩٠٦ – ١٩٠٨. وبالتالي استمرت عامين كاملين مما يشير إلى تقدم البحث الأنثروبولوجي الميداني المتخصص.

واكتملت الإسهامات الميدانية الخالصة بدراسة مالينوفسكي B.Malinowski لسكان جزر التروبرياند Trobriand بالمحيط الهادي ما بين عامي ١٩١٤– ١٩١٨، أي طوال أربع سنوات هي فترة الحرب العالمية الأولى. وفيها أبدع مالينوفسكي في الدراسة الميدانية ووضع قواعدها المنهجية التي لاتزال قائمة حتى اليوم، وحسبما تشير الفقرة (ثالثاً) القادمة.

تتطلب الدراسة الميدانية في الأنثروبولوجيا أن يقصر الباحث اهتمامه على مجتمع واحد، بقصد التركيز الشديد على كل النظم الاجتماعية وفهمها(٥). وهذا يتيح التعرف على كل هذه النظم، وتحليل العلاقات القائمة بينها. وفي سبيل إجراء الدراسة الميدانية في الأنثروبولوجيا بكفاءة، ينبغي مراعاة مجموعة القواعد الأساسية الآتية:

١– الالتزام بالنظرة التكاملية لمجموعة النظم التي تشكل البناء الاجتماعي للمجتمع المدروس. ولا يمكن تطبيق هذه القاعدة، إلا من خلال إجراء الدراسة الميدانية على مجتمع واحد لإمكانية إدراك واقع هذه النظم الاجتماعية، والتعرف على طبيعة العلاقات السائدة فيما بينها، على حين لو أجرى الأنثروبولوجي دراسته على عدة مجتمعات، فسوف يشتت جهده ويعجز عن التعرف الكفء على النظم والعلاقات الاجتماعية القائمة فيها، ويصدق نفس الشيء أيضا حينما يجري الأنثروبولوجي دراسته على مجتمع واحد كبير الحجم، مترامي الأطراف، متعدد الثقافات. لذلك فمن الأفضل في الدراسات الأنثروبولوجية الاقتصار على دراسة مجتمع واحد بسيط، دراسة تكاملية.

٢– ضرورة اعتماد الباحث على نفسه في إجراء الدراسة الأنثروبولوجية على مجتمع البحث، بمعنى أن يتصل اتصالا مباشرا بهذا المجتمع من خلال الدراسة الحقلية Field work والملاحظة المباشرة، وهذا يشكل قاعدة جوهرية في البحوث والدراسات الأنثروبولوجية. ولا يمنع الأمر من الاستعانة بالكتابات الأخرى التي ظهرت عن ذلك المجتمع، وتلقي الضوء على أي جانب من جوانبه. ولعل هذه القاعدة تميز لنا بين علماء القرن التاسع عشر وعلماء القرن العشرين من الأنثروبولوجيين. إذ من الواضح أن معظم علماء القرن التاسع عشر – أمثال فريزر وماكلينان والأب شميت F Schmidt وغيرهم – لم يخطر ببالهم زيارة إحدى القبائل البدائية اتي يكتبون عنها عن

بعد. وما يقال عن هؤلاء يصدق على دوركايم الذي أثرت نظرياته تأثيرا كبيرا في تطور وتبلور فكر رادكليف براون ومدرسته. أما النفر القليل منهم – أمثال تايلور Tylor وباستيان Bastian وغيرهما – فقد قاموا برحلات كثيرة زاروا خلالها عددا كبيرا من القبائل والمجتمعات البدائية. على حين اتجه علماء القرن العشرين نحو الدراسات الميدانية، والاتصال المباشر بالمجتمعات البدائية والبسيطة ومن هؤلاء إيفانز بريتشارد ومارجريت ميد وسليجمان ومالينوفسكي وشابير وفورتيس ونادل وغيرهم(٦).

٣ – صغر حجم مجتمع الدراسة، وتحتم هذه القاعدة ضرورة دراسة المجتمعات الصغيرة المحدودة تمام التحديد إذ كلما صغر حجم المجتمع وتحددت رقعته ومساحته، وتميزت معالمه وحدوده، كلما سهل على الباحث الأنثروبولوجي تتبع نظمه الاجتماعية وثقافته، ودراسة نسقه الاجتماعي كوحدة متميزة واضحة. ولذلك نجد معظم الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية – خلال القرنين التاسع عشر والعشرين– تدور حول شعب واحد أو قبيلة واحدة أو مدينة صغيرة أو حتى مصنع أو محل تجاري. فإيفانز بريتشارد على سبيل المثال يدرس شعب النوير على حدة، كما يدرس شعب الأزاندي على حدة، ولم يحاول أن يقوم بدراسة حقلية تشمل مجموعة الشعوب النيلية التي يندرج تحتها شعبا النوير والأزاندي. وبريستياني يدرس قبيلة الكبسيجيس الذين لا يتعدى عددهم الثمانين ألفا، ولا يدرس مجموعة الشعوب السودانية أو حتى القبائل الناطقة بلغة الناندي (وهي أحد فروع هذه المجموعة) التي ينتمي إليها الكبسيجيس(٧). ويكتفي بيت ريفرز Rivers بدراسة مدينة Alcala de la Sierra التي لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف شخص، ولا يدرس أسبانيا كلها أو حتى الأندلس حيث تقع المدينة. وأخيرا نجد جون إمبري Embry يقصر دراسته الحقلية على قرية سويا مورا Suya Mura التي يبلغ تعدادها ١٦٦٣ نسمة، ولم يدرس اليابان كلها أو إحدى الجزر اليابانية الصغيرة.

ويمكن القول بأن تحديد الوحدة الاجتماعية – موضوع البحث الأنثروبولوجي – يمثل مشكلة تواجه الباحث في بداية عمله. إذ أن الأساس الأول في الاختيار يتمثل في وجود نسق اجتماعي واضح يستطيع تحليله ودراسة العلاقات المتداخلة التي يتألف

منها. بيد أن كل وحدة اجتماعية – أيا كان حجمها– لها نسقها الخاص، كما أن ما نعتبره نسقا متكاملا في وحدة اجتماعية معينة، قد يؤلف جزءا من نسق أوسع في وحدة اجتماعية أكبر وهكذا.

٤ – المدة الزمنية التي يقضيها الأنثروبولوجي في الدراسة: كان العلماء الأوائل – الذين قاموا بالدراسات الحقلية – في عجلة من أمرهم. حيث كانت زيارتهم الميدانية خاطفة ولا تتعدى بضعة أيام. ونادرا ما كانت زيارتهم لهذه الشعوب والقبائل البدائية تستمر أكثر من بضعة أسابيع. ومع أن هذه الزيارات السريعة الشاملة قد تصلح لأن تكون خطوة تمهيدية لما يأتي بعدها من دراسات مركزة، إلا أنها لا تفيد بحال من الأحوال في فهم الحياة الاجتماعية. ولذلك فإن الباحث المحدث يقضي الآن فترة تتراوح ما بين العام الواحد والأعوام الثلاثة في دراسة شعب واحد، مما يتيح له الفرصة لملاحظة الحياة الاجتماعية في كل فصول السنة. وتسجيلها بكل تفاصيلها ودقائقها، ثم اختيار النتائج بعدئذ بطريقة منهجية منظمة. والواقع أن طول مدة البحث لا عبرة منها، إلا بالقدر الذي سمحت للباحث خلالها بالوصول إلى صورة دقيقة ومفصلة عن المجتمع المدروس. وبالتالي ينبغي عليه أن يضع نفسه في موضع يتيح له توطيد علاقته بالأهالي، فيلاحظ مختلف مظاهر النشاط اليومي، ويتابع حياة الجماعة من داخل المجتمع وليس من خارجه[٨]. ولن يتسنى له ذلك، إلا إذا عاش بقدر المستطاع في قراهم أو مخيماتهم، وأصبح جزءا فيزيقيا ومعنويا في مجتمعهم، فيرى ويسمع كل ما يدور حوله من أحداث يومية وأحداث موسمية – أو بين الحين والحين – كالاحتفالات والمنازعات والحصاد والقضايا والزواج والوفاة... الخ، وأن يسهم بشكل إيجابي في تلك المناشط والأحداث ذاتها، وبالتالي يتعلم بالعمل والممارسة كما يتعلم بالسمع والبصر.

٥– ذهاب الأنثروبولوجي بمفرده إلى مجتمع الدراسة ودون أن يرافقه أحد من بني جنسه أو من نفس ثقافته، مما يضطر معه إلى الالتجاء إلى الأهالي أنفسهم، يبحث بينهم عن الرفقة والصداقة والفهم الإنساني. وبالتالي يقاس نجاح الأنثروبولوجي بمدى ما حققه من علاقة وطيدة بالأهالي تجعله يشعر بالحزن عند مفارقتهم، وتجعلهم هم أنفسهم يشعرون بهذا الشعور. والواقع أن هذا الشعور لا يمكن الوصول إليه، إلا إذا

أفلح في الاندماج في المجتمع بحيث يصبح عضوا فيه، ويتشرب ثقافتهم، فيفكر في حدودها، وينفعل بها مادام هو أقدر منهم على التحول وعلى التكيف. والمسألة ليست مجرد التجاور أو القرب الفيزيقي أو المادي، ولكنها مسألة نفسية هامة. فالأنثروبولوجي الذي يعيش بين الأهالي كواحد منهم، يضع نفسه في مصافهم في كل شيء، وبالتالي فهو يختلف عن رجال الإدارة، والحكومة في أنه لا يتمتع بأية سلطة أو مركز يحاول إبرازه والاحتفاظ بهيبته. أضف إلى ذلك أنه يقف من الأهالي موقفا محايدا ومتزنا، فهو لم يأت لكي يغير أسلوب حياتهم، وإنما سعى إليهم في تواضع ليقيم بينهم ويتعلم أسلوبا معينا منهم.

٦- ضرورة مخاطبة الأهالي بلغتهم وبطريقتهم لنجاح الدراسة الأنثروبولوجية. فإذا كان الأنثروبولوجي غريبا عن المجتمع ولا يعرف لغته، فإنه لابد أن يتعلم هذه اللغة حتى يستغني عن المترجمين، ويستطيع التخاطب المباشر مع الأهالي وكسب ثقتهم وحرية الاختلاط بهم. وقد نقول بأن تعلم اللغة يستغرق وقتا وجهدا كبيرين من الباحث، إلا أن العائد العلمي الناجم عن تعلم هذه اللغة يفوق ما استنفده تعلمها من وقت وجهد. فالمعروف أن العلاقات الاجتماعية والعقائد والطقوس والعمليات الفنية والعادات وكل شيء في حياة الأهالي تظهر في شكل ألفاظ أو في صورة أفعال. وحينما يفهم الباحث معاني كلمات اللغة وكيفية استعمالها في مختلف المواقف والمناسبات، يكون قد استكمل دراسة المجتمع. أما إذا كان الأنثروبولوجي غريبا عن المجتمع الذي يدرسه، فلابد إذن من التعرف على الثقافة الخاصة السائدة فيه، والتبسط في لغة الحديث ليفهمها البسطاء وسائر أفراد مجتمع الدراسة.

ثالثاً: ملامح الأنثروبولوجيا في الألفية الجديدة.

تنوعت الاهتمامات الأنثروبولوجية فى نهاية القرن العشرين الماضى، وكثرت الدراسات والبحوث التى تتناول موضوعات شتى. ولكن الغالب على هذه الفترة، أن تلك الاهتمامات شملت موضوعات الجسد Anthropology of the Body، والروائح Prefums، والصحة والمرض Health and disease، والمستشفيات عموماً، والنوع

الاجتماعى Gender، والقوة Power، والطعام Food، والهوية الأنثوية Female Identity، والسمنة Obesity، والطعام والثقافة Food and Culture.

وقد أدت العولمة – التى نعيشها الآن بوسائلها وآلياتها وتجلياتها – إلى المزيد من الاتصال المكثف بين شعوب العالم وثقافاته. غير أن هذا الواقع المترابط ظاهراً، يشهد تفككاً واضحاً، وصراعات وحروباً لا حد لها، بل تكاد تصل إلى الإبادة الجماعية، ورفض الآخر من الأساس ولا يصدق ذلك على العالم الثالث فقط، بل يتعداه إلى بعض البلدان الأوربية كما حدث فى البوسنة[٩] فى التسعينيات ثم فى كوسوفا، حيث استهدف الصرب استئصال المسلمين من البوسنة، ومن يوغوسلافيا السابقة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية.

ومن المعالم المميزة للأنثروبولوجيا عامة والثقافية بنحو خاص فى الألفية الثالثة ما يلى:

(١) إن الثقافة وفهمها، والأنثروبولوجيا الثقافية وقضاياها ودراساتها، تساعدان على إرساء **مبادئ الحوار** بين الشعوب وتسعيان لتحقيق التفاهم بين الثقافات. ولو كانت المجتمعات والحكومات والساسة يراعون قواعد هذا العلم الثقافى ونتائج دراساته، لنجحوا فى سياساتهم، وأفادوا مجتمعاتهم، وخدموا البشرية ككل. ولكن الواقع المر – وهذه لمسة نعايشها ليلاً ونهاراً – فى العالم أجمع، يشير إلى تجاهل العلم عامة، والثقافة بشكل خاص. ولذلك كثرت الصراعات، وزادت الأطماع، وتأججت الحروب، وأضرمت الصراعات، واشتدت المعارك، دون مراعاة لآداب إنسانية أو حقوق بشرية. ومع ذلك، نلاحظ أن دراسات الأنثروبولوجيا الثقافية – خلال بدايات الألفية الثالثة – تتنوع وتتعمق فى فهم العلاقات الاجتماعية والشخصية الإنسانية، والقيم والمعايير الأخلاقية، أملاً فى تحقيق فهم الإنسان نفسه لنفسه، ومن ثم فهمه للآخر وتعايشه معه، وكأن هذه الدراسات تئن من الواقع المؤلم، وتجتهد فى سبيل علاجه أو التخفيف من آلام شعوبه.

(٢) وتبدأ هذه المساعى بربط الإنسان بالخبز Bread بوصفه عالماً يشترك الجميع فيه، فكيف تتأثر عادات الطعام والعلاقات الاجتماعية بالتحديث والعولمة؟ وكيف

ينعكس ذلك على الإنسان وحياته مع الآخرين؟ فالإنتاج المحلى فى العالم الثالث يتناقص ويركد، ومحاكاة أنماط الاستهلاك فى المجتمعات الغربية يتزايد، ويصاحب ذلك تغيرات فى العلاقات الاجتماعية، ومنها تزايد الفردية، واستقلال القرارات بعيداً عن الأسرة الممتدة أو المجتمع المحلى الصغير. وهنا نكون بصدد ما أسماه بيتر شنيدر Schneider وهانسين Hansen "التحديث دون تنمية"(١٠).

(٣) وهناك دراسات عديدة تدور حول الأنثروبولوجيا الثقافية والحداثة Modernity بالاعتماد على الإثنوجرافيا Ethnorgapy باعتبارها حجر الزاوية فى الدراسات الأنثروبولوجية، علاوة على الاعتبارات النظرية التى يصيغها الإثنوجرافى بين الذات والآخر Self and Other من واقع دراساته الميدانية(١١). ويغطى هذا المجال البحثى مجتمعات عديدة من العالم الثالث ومنها مجتمع ماليزيا، وجنوب شرق آسيا، للتعرف على دور التصنيع وسياسات إعادة الهيكلة الاجتماعية فى ظل السياسة الاقتصادية الجديدة. ودور الانعكاسية Reflexivity (وهى خاصية تأمل الذات والنظر فيها) (١٢) وتأثيرها على المسافات المعاصرة للتراث.

(٤) ومن المجالات الحديثة للأنثروبولوجيا الثقافية، الاهتمام النقدى بحقوق الإنسان Human Rights، وتؤصل لهذا المجال بتأكيد الأنثروبولوجيين على أن البرامج والمؤسسات الدولية تعيش على مفترق الطرق منذ سبعة عشر عاماً بعد نهاية الحرب الباردة، ومنذ الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى عام ١٩٤٨(١٣). والملاحظ أن الانفراجات السياسية إلى نتجت عن نهاية الحروب العالمية، قد أوجدت ما وصفه إليانور روزفلت Eleanor Roosvelt بالمصدر الفضولى لترويج الإشاعات Curious grapevine للفاعلين غير الحكوميين (للأجهزة والنشطاء غير الحكوميين) لنقل أفكارهم وممارساتهم حول حقوق الإنسان، إلى أجزاء مختلفة من العالم، كجزء من الأنشطة التنموية الانتقالية. ومن ناحية أخرى، فقد أدى انتشار خطاب حقوق الإنسان إلى تضخيم المشكلات المختلفة فى قلب حقوق الإنسان ذاتها، وهى مشكلات لا تزال نظرية، وعملية، وفينو مينولوجية (ظاهرياتية). ولكن للأنثروبولوجيا الثقافية دوراً بارزاً

فى تشخيص هذه المشكلات، واقتراح أساليب إعادة تأطير reframing حقوق الإنسان، لتحقيق أهدافها الأصلية التى جسَّدها الإعلان العالمى UDHR، ولتقف على أرض صلبة، ليستطيع الناس إدراكها وفهمها.

(٥) ومن الملامح الأخرى للأنثروبولوجيا الثقافية فى الألفية الثالثة، الاهتمام **بالتواصل الاجتماعى** وتكنولوجيا الاتصالات وتأثيرها على الثقافة والمجتمع البشرى ككل. ولذلك صار الأنثروبولوجيون يؤكدون على أن الأشكال والصور العديدة للاتصال، قد لعبت دوراً بارزاً منذ القرن التاسع عشر، مما يدل على سيطرة هذا الموضوع وأهميته كما يؤكد ميشيل فوكوه M. Foucault (١٩٨٢) ودافيد هاكين D. Hakken (١٩٩٣) [١٤]. ومنذ التسعينيات والأنثروبولوجيون يبشرون بقرب قدوم تكنولوجيات جديدة للاتصال كموضوع للدراسة. وهذا يعنى الحماس فى الإعلان عن إمكانية وجود شيء ما جديد، والتخوف من آثاره على كفاءة العلم فى الكشف عن الملامح الدالة على هذا الشيء الجديد.

وتحظى الأنثروبولوجيا بالنظرة الشاملة فى تراثها المعرفى، وبالتالى فهى تدعم المداخل التكاملية على المستوى الأكبر لعمليات التغير الثقافى والاجتماعى مما يبرر مشاركة الأنثروبولوجى فى دراسة التكنولوجيا الجديدة. كذلك فإنه يمكنه البدء كإثنوجرافى تقليدى؛ يصف الثقافة ويشخص ما يحدث من ممارسات وتحولات ناجمة عن الأخذ بالتطورات العلمية والتكنولوجية الحديثة. وبالتالى تصبح الأنثروبولوجيا أقدر على دراسة الاتصال المباشر اجتماعياً وثقافياً فى سياقات سريعة التغير. إضافة إلى ذلك، فإن إنتاج المعرفة عن التكنولوجيات الاتصالية الجديدة داخل سياقات مشروعات إثنوجرافية تعتمد على علاقة الوجه للوجه Face to face[١٥].

(٦) لقد أدت المعلومات، وتكنولوجيا الاتصالات وخاصة الإنترنيت، إلى بزوغ أنواع جديدة من المجتمعات المحلية، والممارسات الاتصالية، بما يفرض نفسه على بساط البحث الأنثروبولوجى. إن الطبيعة الثورية للإنترنيت، والتحولات العديدة المصاحبة لها، جعلت التغيرات أقل درامية وأكثر تجسيداً فى علاقات القوة Power Relations وممارسات الحياة اليومية everyday life. ويسعى هذا المجال للكشف عن المداخل

والـرؤى الأنثروبولوجيـة، والمجـالات المرتبطـة بهـا، وتحديـد التوجهـات الواعـدة الجديـدة للدراسة(١٦). وينظر هذا النوع من الدراسات المعاصرة إلى الإنترنيت، وكل النصوص، ووسائل الاتصـال المتاحـة فيـه، باعتبارهـا منتجـات ثقافيـة فـى حـد ذاتهـا. وهكـذا فـإن الأنثروبولوجيا أقدر على دراسة هذه الظواهر الجديدة، والظواهر غير الجديدة بالشكل المعروف.

(٧) ويمثل التطور المنهجى ملمحاً معاصراً آخر فى الأنثروبولوجيا الثقافية، تفيد فيه العلـوم الاجتماعيـة والطبيـة والصـحة العامـة، وتسـتفيد منهـا. ولـذلك نتوقـع أن علمـاء الأنثروبولوجيا يسيرون على الطريق الصحيح، حينما يقدرون علمهم بانتهاج البحث الميـدانى طويـل المـدى(١٧). والمجـال هنـا عـن منـاهج النقـاش الجمـاعى Panel Methods، والتصميم المنهجى الطولى Longitudinal ودراسات مستقبل الجماعة Prospective Cohort، أو الملاحظات المتكررة Repeated Observations. والغالب أن الأنثروبولوجيين الثقافيين يعادلون الدراسات الطولية، بالعمل الميدانى طويل المدى، وبالتالى فهم يفيدون العلوم الأخرى فى التصميم المنهجى، وإجراء الدراسات النقاشية الجماعية، سواء الطولية أو العرضية، عن المستقبل أو عن الماضى، النقاش العرضى المقطعى أو الجماعى المتعاقب Rotating Panel.

رابعاً: التحديات المعاصرة والتنوع الثقافي:

نفترض أننا الآن في عام ١٩١٨، وسألنا مالينوفسكي B.Malinowski أن يُعد لنا ورقة بحثية عن المنظورات والتحديات التي تواجه الأنثروبولوجيا في القرن العشرين، وقد انتهت بالفعل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨). لا يمكن لأحد أن يتوقع أو يتخيل بعد ٢١ سنة تقوم حرب عالمية ثانية، لأن العالم كان وقتها مشغولاً بوباء الأنفلونزا الذي حصد من البشر ما يفوق ضحايا الحرب ذاتها. وفي نفس الوقت لم تكن هناك مضادات حيوية، وما يزال الاستعمار يسيطر على دول العالم، ولكن سرعان ما اندلعت الثورة البلشفية (الروسية). وهل تخيّل أحد أن يشهد العالم في نهاية القرن وجود

زراعة القلب (في الطب)، وأجهزة الحاسوب (الكمبيوتر)، ووباء الأيدز وغيرها من الأحداث والإنجازات التي تحققت؟ ولكن ماذا عن الأنثروبولوجيا؟ وهذا موضوعنا؟

لقد أحدث مالينوفسكي تطويراً نظرياً ومنهجياً وميدانياً في مجال علم الأنثروبولوجيا، وما ظهرت بعده من اتجاهات نظرية وبحثية عديدة ومنها أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة Postmodernism Anthropology، والأنثروبولوجيا النسوية Feminist Anthropology، وأنثروبولوجيا العالم الافتراضي Cyber-Space Anthropology، وتعدد المنظورات Perspectivism؛ هل كان أحد منا يتخيّل أن يحدث كل ذلك؟[١٨]

لا تزال تطاردنا صعوبات التفكير في مستقبل مهنتنا وتخصصنا الأنثروبولوجي، وخاصة أننا لن يطول عمرنا إلى نهاية القرن الحادي والعشرين، فيمكن أن نناقش هذه الموضوعات دون كثير من المخاوف أو المحاذير. وبطبيعة الحال، أنا لا أستطيع – ولا أنت عزيزي القارئ – أن نتنبأ بما سيكون عليه حال العالم في عام ٢١٠٠. ولكن يمكن التركيز على نقطتين مرتبطتين بالأنثروبولوجيا، وأولاهما هي الارتباط الأخلاقي والالتزام الأنثروبولوجي تجاه الجماعات البشرية التي سقطت من الحداثة، واسُتبعدت منها أساساً، ولكنها لاتزال من تبعاتها ونتائجها. إن الالتزام الذي نشعر به تجاه تلك المجموعات بأنها تملك بُعداً أخلاقياً، يعتمد على فكرة ثراء التنوع الثقافي Cultural diversity، وضرورة احترامه والحفاظ عليه.

وبهذا المعنى، فإن الأنثروبولوجيا البرازيلية تعيش وضعاً متميزاً، فمنذ نشأتها ارتبطت بالسكان الأصليين natives ومجتمعاتهم المحلية، وبعدها ازداد اهتمامها حديثاً بالمارون Maroons وهم أحفاد السكان الأصليين للمجتمعات المحلية من الأرقاء (العبيد)[١٩]. إن الجمعية الأنثروبولوجية البرازيلية هي من أقدم الجمعيات العلمية التي تأسست في عام ١٩٥٥، وهي أكبر الجمعيات أعضاءً حيث تضم ١٠٠٠عضو، وانشغلت بالعمل السياسي، ودراسة المجتمعات المحلية للسكان الأصليين والمارون. ففي أثناء الحكم العسكري الديكتاتوري لم تتوان الجمعية في الدفاع عنهم. وعندما زال النظام العسكري، تكتلت جهودها للدفاع عن حقوق أبناء البلد الأصليين، وحتى عند

صياغة دستور ١٩٨٨، استطاعت تأمين ١٢,٥% من إقليم البرازيل لصالحهم. وتبنت – في نفس الوقت – الدفاع عن حقوقهم في تملك الأرض التي آلت إليهم من أسلافهم العبيد السابقين الذين يعترف بهم الدستور. ومنذ ذلك الحين والجمعية الأنثروبولوجية تناضل في ميادين مختلفة لتأمين الأرض التي تخص هاتين الجماعتين بحكم القانون، وتثبت حقهما فيها، وإعطاءهما عقوداً قانونية بأسماء الأعضاء لحيازتها. كما وقعت الجمعية اتفاقاً مع مكتب الإدعاء العام البرازيلي Prosecutor General office بتعيين واحد من أعضاء الجمعية كخبير شاهد عندما تُثار قضايا تنازع ملكية الأرض في هذه المجتمعات المحلية.

والواقع أننا نركز على البرازيل – في هذه الفقرة بالتحديد – لأنها مثال واضح للتنوع الثقافي، وما يجابهه من تحديات، تدخل في صميم اهتمام هذا البحث. إن البرازيل – على عكس البلدان الأخرى – يصعب أن تميز بين المثقف الأكاديمي والمثقف العام، فإن كنت تنتمي إلى العلوم الاجتماعية – وخاصة الأنثروبولوجيا – فلابد أن تتوقف عن العمل العام، لأن التحديات التي تواجه البرازيل عديدة ومنها عدم المساواة الاجتماعية، والتمييز العرقي، والتفاوت في النوع الاجتماعي Gender، ورُهاب الشواذ homophobia، وهي تحديات تستلزم مواجهتها مناظرات للتشخيص والعرض، وطرق الحل.

وثانية النقطتين تشير إلى الممارسة العقلية لعلم الأنثروبولوجيا. إذ أن هناك تباينات بين النظريات والمدارس الأنثروبولوجية الحالية والمستقبلية. وهذا يستلزم تفسير الظواهر الاجتماعية وأنماط السلوك المختلفة.

إن التنوع الثقافي سائد في كل مكان في العالم، ولكن تيار العولمة جارف ويحاول اكتساح هذا التنوع وطمسه، وفرض "الأمركة" عليه بالقوة: ثقافةً وسياسة واقتصاداً وسلوكاً[٢٠]. ولا يجابه هذا التحدي إلا علماء الأنثروبولوجيا، فهم الأقدر على فهم الجماعات والثقافات الفرعية، وتفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية التي تسودها، وماذا تعني من وجهة نظر ممارسيها، والمنطق الكامن وراءها.

لقد كان الأنثروبولوجيون الأوائل في أمريكا الجنوبية من الأوربيين البيض الذين درسوا المستعمرات الذين يسيطرون عليها. وبمرور الوقت، صار أبناء هذه الشعوب الأصلية أنثروبولوجيين تعلّموا في جامعات البرازيل الإجراءات المنهجية، والقياسات الجادة، واستشهادات وأقوال أبناء البلد والأفارقة البرازيليين، وبالتالي اتسع لديهم المنظور الأنثروبولوجي(٢١).

لقد كان غير البيض يسمون بأبناء البلد، وهم مستبعدون وغرباء اجتماعياً وجغرافياً، علاوة على أنهم مختلفون عن البيض والأوربيين عموماً. واستدعى هذا التنوع، ضرورة تفسير أنماط السلوك وما يكمن خلفه من منطق. وفي هذا المعنى أكد مالينوفسكي على أن هدف الأنثروبولوجي أو الإثنوجرافي أن يستوعب وجهة نظر ابن البلد، وعلاقته بالحياة، ليدرك حقيقة رؤيته للعالم World View. إن الأنثروبولجي لا يزال يمارس العمل الميداني في المجتمعات البسيطة، ولكنه يميل نحو مجتمعه هو، وليس مجتمع الدراسة. هل تستطيع الأنثروبولوجيا الآن أن تفسر لنا ماذا يحدث في العالم اليوم؟ وما نوع النظريات والمناهج التي نحتاجها لمواجهة التحديات التي يعيشها الأنثروبولوجيون أنفسهم في القرن الحادي والعشرين؟

وإذا كانت الأنثروبولوجيا قد انطلقت من دراسة المجتمعات البسيطة إلى دراسة المجتمعات الريفية والحضرية والصناعية، فأفاضت بإسهامات بارزة في فهم طرق الحياة المختلفة، وتباين معانيها، والتنوع الثقافي الواضح، الذي أكده البحث الإثنوجرافي. وهكذا تراكمت دراسات عديدة حول ظواهر تحدث في المجتمعات الأكثر تعقيداً(٢٢). ومنها مخزون الأسواق Stock Market، والفضاء الافتراضي Cyber Space والمجتمعات المحلية في المدن الكبرى Megalopolis...الخ. وهكذا صار الأنثروبولوجيون يقدمون تفسيرات عميقة عما يحدث في العالم على المستوى الأكبر Macro ويتعقبون توابعه، على الرغم من أنهم يميلون إلى إجراء دراسات تفصيلية حول ظواهر معينة على المستوى الأصغر Micro.

يشهد القرن الحادي والعشرون تغيرات غير مسبوقة، ولا تحدها قيود. فإذا حددنا التغيرات وأسميناها، فسوف تواجهنا تكنولوجيات جديدة، وهجرات واسعة من قارة إلى

أخرى، وإحياء القومية، والعرقيات الفرعية لمناهضة العولمة. ولذلك صار من العسير أن نتنبأ بما سيحدث في العقد القادم. ولكن يمكن أن نناقش التحديات والمنظورات التي ستواجهها الأنثروبولوجيا خلال السنوات الباقية من هذا القرن.

نبعت النظريات الأنثروبولوجية من دول الشمال، وفرضت على دول الجنوب، والآن صار أبناء الجنوب ينقدون ويعارضون هذه النظريات ويصححونها وهنا برز الباحثون المحليون، وأبدعوا في التنظير الخالص Perspectivism. ولكي نجيب على سؤال ماذا يحدث في العالم اليوم، ونفسره، فلابد من الارتكاز على علماء الجنوب (أبناء البلد) الذين أبرزوا أربع وسائل للإجابة وهي [٢٣]:

١- **الهجرة Migration:** إن الهجرة واحدة من القضايا الساخنة في الألفية الجديدة، حيث يحاول فقراء البلدان الأفقر، والبلدان التي تعيش صراعات وحروباً، أن يهاجروا إلى البلاد الأغنى، بحيث يجدون فرص الحياة الأفضل، وفرص العمل. والواقع أن البلدان الغنية تحتاج مهاجرين يقومون بالأعمال التي يستهجنها السكان المحليون، ويرفضون القيام بها. فالزراعة في ولاية كاليفورنيا – وهي الأغنى في العالم – لا يمكن استمرارها إلا بالعمالة المكسيكية المهاجرة بدون وثائق رسمية. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة قد قامت على سواعد المهاجرين، إلا أنها لم تعد ترحب بهم الآن.

٢- **العرقية Ethnicity:** وهي تلعب دوراً أساسياً في الموقف العالمي الآن. وهناك موجة محافظة تحدث في بلاد مختلفة، تعتمد على كراهية غير المرغوب، من هؤلاء الذين فقدوا أعمالهم وأشغالهم مع التغيرات الاقتصادية التي لحقت بهم بسبب العولمة. ومن اليسير أن تقنع العاطلين الذين فقدوا وظائفهم وأعمالهم بأن يلوموا المهاجرين ويمقتونهم. والحقيقة أن التركيب العرقي للبلاد المركزية قد تغير تغيراً سريعاً برغم ما نقول. وعلى نفس النمط، لم تعد الولايات المتحدة مضارة ديموجرافياً بسبب تدفق المهاجرين إليها. كما أن كثيراً من البلدان الأوربية صار فيها البيض والمسيحيون أقلية، وهذا يثير مجموعة من القضايا حول كيفية استعداد الأنثروبولوجيا لتفسيرها. ويصدق

ذلك على البرازيل، وغيرها من البلاد. فلو نظرت البرازيل إلى نفسها كدولة هجين mestizo تسودها الدمقراطية السلالية، فإن هناك اليوم وعياً متنامياً بأن الحال ليس كما نتصور. فالكثيرون من الناس يتكلمون اليوم عما يسمى "السلالية الودية" Cordial Racism التي تبدأ بالصعوبات الثقافية للاعتراف بأن البرازيل فيها التعصب، والتمييز، وعدم المساواة بين السلالات. وتعكس الإحصاءات الرسمية سوء أحوال السود، وبالمؤشرات الاجتماعية كالتعليم والصحة والدخل، والأمية، ووفيات الأطفال، ومتوسطات الأعمار. فالبرازيليون من غير البيض أسوأ حالاً، لأنهم جزء من القطاعات السكانية الأكثر فقراً. وتظهر لنا البيانات المعاصرة والتفسيرات الحالية أنهم يعانون من تمييز مضاعف بحكم كونهم سوداً، وبحكم أنهم فقراء. ولم يعد البيض أغلبية ديموجرافية – حسب التعداد الأخير – على الرغم من أنهم يسيطرون على المجتمع. ونفس الشئ حدث في مجال الدين.

٣- **الشعبوية Populism**: وهي تعني مجموعة من المواقف السياسية التي تؤكد على فكرة "الشعب"، وتقارن هذه المجموعة غالباً "بالنخبة". تطور المصطلح في القرن التاسع عشر، وطبق على العديد من السياسيين والأحزاب والحركات منذ ذلك الوقت، رغم ندرة اختياره كوصف ذاتي. وإذا كانت هناك نظريات تؤكد كيف أن العولمة كانت ثقافات متجانسة، وأن هناك منتجات للثقافة الجماهيرية التي يمكن أن نجدها في كل مكان، فإن ذلك كله يظهر بجلاء في عودة المكبوت Repressed المسمى بالمحلية المفرطة. وقد يكون ذلك صحيحاً، وبطريقة مقبولة لو هناك إعادة إحياء للتقاليد والثقافات المحلية. وهناك إغراء للفنيين الشعبيين الذين يصورون الآخر على أنه عدو أو خطر يهدد نقاء الأمة ونقاء العنصر. وتتداخل الشعبوية مع العرقية – في مركب واحد – في مثال البرازيل التي صارت كاثوليكية ذات جذور دينية عميقة. وعلى الرغم من كونها أكبر بلد كاثوليكي في العالم، لكن الصورة تتغير بسرعة كبيرة مع نمو العنصرة Pentecostalism والأديان الأفريقية – البرازيلية. لقد نمت ديانة العنصرة بسرعة فائقة، وصارت الدين الثاني الأكثر انتشاراً في البرازيل. فلم تعد مشروعاً دينياً،

بل مشروع اقتصادي وسياسي. وقد أُنتخب أتباعه أعضاء في الكونجرس، ويشكلون جماعات انتخابية ضاغطة تؤيد بعضها بعضاً، عند طرح قضية دينية محل مراهنة Stake (كالإجهاض abortion، والتعليم الديني...الخ).

إن الكنيسة العامة لمملكة الرب تأسست في البرازيل في عام ١٩٧٧، صار لها فروع في ١٢٠ بلداً في العالم، بما فيها أمريكا الشمالية، والاتحاد الأوروبي يحركون الملايين من الأتباع المؤمنين بها وبمبالغ مالية ضخمة، إن مؤسسها هو صاحب شبكة التليفزيون الثانية الأضخم في البرازيل.

٤- **المحافظة (الاتجاه المحافظ)** Conservatism وتتمثل في اتجاهات ضاغطة تسعى لعودة الصراعات العرقية وتأجيجها، ومن ذلك استبعاد يوغوسلافيا في قلب أوربا، وما حدث من إبادة عرقية لشعب البوسنة المسلم في أوربا أيضاً،[٢٤] والإبادة العرقية التي تقوم بها إسرائيل في غزة والأراضي الفلسطينية الأخرى بدءاً من ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ وحتى اليوم. كذلك تتمثل هذه الاتجاهات في ردود الأفعال تجاه المهاجرين إلى أوربا والولايات المتحدة، وفي السوق الأوربية المشتركة والاتحاد الأوربي وغيرها.

خامساً: التحديات النظرية في تفسير الظواهر الاجتماعية:

قد نرى على مدار السنوات القادمة من القرن الحادي والعشرين، كثيراً من التغيرات الأخرى التي يستحيل أن نتنبأ بها الآن. وعلى هذا فقد صار التحدي الذي يواجه الأنثروبولوجيا هو الاستمرار في التمسك بحقوق الجماعات التي تمثل التنوع الثقافي أولاً، والمهمة الثانية – محل التحدي- هي تقديم تفسيرات للظواهر الاجتماعية التي يواجهها العالم في الأيام القادمة.

انطلاقاً من مقولة ماركس بأن الفلاسفة هم الوحيدون الذين حاولوا تفسير العالم بطرق مختلفة، ولكن المهم هو تغيير العالم وليس تفسيره. ونحن في حاجة إلى الرؤيتين معاً، التفسير والتغيير، فليس هناك تغيير بلا تخطيط، ولا تخطيط بلا دراسة وتفسير. والتفسير يصب في نهاية المطاف في التغيير والتطبيق. لقد أسهمت الأنثروبولوجيا في

مجـالات عديـدة كالتنميـة، والصـحة، والهجرة،وحقـوق الإنسـان، والتعدديـة الثقافيـة multiculturalism فـي المنظمـات غيـر الحكوميـة وغيـر الربحيـة Non-Profit. إن الأنثروبولوجيا مجال راسخ الأسس، وحقل أكاديمي يعتمد على التنوع بشكل متزايد، يقدم وجهات نظر ثاقبة، وتحليلات نظرية محكمة وواقعية. إلا أنها لم تقتحم بعض القضايا الشـائكة الآن، ومنهـا تكنولوجيـا المعلومـات، وخبـرة المسـتخدم، والتصـميم، والتعلـيم، والتوظيف، والإدارة، والتنمية، وصناعة السياسات علاوة على المداخل الأنثروبولوجية في الصناعة والقطاع الخاص(٢٥).

ومـن الجـدير بالـذكر أن هنـاك عقبـات تاريخيـة تنطلـق مـن السـياق التـاريخي للأنثروبولجيا ككل في كثير من البلدان الأوربية. فقد ظلت علماً أكاديمياً بعيداً عن التـأثير فـي الاقتصـاد، والمعلومـات الأوربيـة عـن السياسـات القوميـة، والأداء الـوظيفي للمنظمات غير الربحية، ولعل هناك أسباباً ثلاثة لهذا الموقف وهي(٢٦):

١. الترنح الاستعماري Colonial hangover الناجم عن الأزمات الأخلاقية والقيمية عند الأنثروبولوجيين.
٢. حـواجز اخـتلاف التقاليـد واللغـة القوميـة وعـدم الاتفـاق علـى معنـى مصـطلح الأنثروبولوجيا، وتطبيقاته، وإسهاماته.
٣. الأداء العـام الشـائع بـين الجمهـور وصـناع القـرار حـول بسـاطة القصـص غيـر المشخصة وغير القابلة للقياس Quantifiable، والمناهج التي تستغرق وقتاً كبيراً بشكل غير تقليدي، مما أدى في النهاية إلى بطء صياغة وجهات نظر أو نظريات خلاّقة، أو إبداعات تمييزية idiosyncratic تثير الانتباه.

وفوق هذه الأسباب الثلاثة، هناك واقع أوربي يتمثل في عوائق الحدود القومية، والموانـع اللغويـة، حيـث أصـدر الانثروبولوجيـون الأوربيـون دراسـاتهم بلغـاتهم القوميـة. ولكن التقاليد الأوربية المتنوعة، حالت دون عبور الحدود القومية Supranational hubs والمحـاور فـوق الوطنيـة، التـي تمكـنهم مـن التـرابط الفكـري، وتناقـل المعرفـة، والمناهج والمداخل البحثية.

سادساً: تحديات المستقبل:

استعرض بـول سـيليتو Paul Sillitoe تقيـيم وضـع الأنثروبولوجيـا عامـة فـي بريطانيـا، والأنثروبولوجيـا التطبيقيـة، فقـال "يبـدو أن هنـاك شـيئاً مـا عـن حالـة العلـم، تصرف الناس عن الارتباط به"، وقد يرجع ذلك إلى الانقسام المعوِّق بين الأنثروبولوجيا وفروعها وتطبيقاتها، وعدم الاتفاق على تعريف الأنثروبولوجيا، والمشكلات البادية على العلـم، وفـي ضـوء ذلـك، نضـع ايـدينا علـى التحـديات القائمـة، وخطـوات إدمـاج Condolidation العلم وفروعه، كما يلي(٢٧):

التحدي الأول: ضرورة تحديد تعريف واضح للأنثروبولوجيا عامة، والتطبيقية على نحو خـاص. فالتعريفات المعاصـرة غامضـة، كمـا أن الأنثروبولوجيـا فقدت اهتمامهـا البحثـي بسبب الخصوصية Particularisation، وافتقاد الإطار النظري العام مرات عديدة في التـاريخ، حتـى خلـت أيـدينا مـن كـل شـئ، ولـم نخـرج بشـيء، ثـم نسـأل: أيـن ذهبـت الأنثروبولوجيا؟ وإذا وضعنا تعريفاً للأنثروبولوجيا التطبيقية، فسوف نقدر علـى إدماجها كفرع يستوعبه الجمهور بسرعة ويفهمه.

التحـدي الثـاني: الحاجـة الماسـة لأن تكيـف الأنثروبولوجيـا وفروعهـا، مـداخلها البحثيـة وتحسِّن مناهجها، لتحويل المعرفة التي تستقيها من سياقات براجماتية، إلى ذكاء نظري. ولا يصبح هذا الارتباط مصطنعاً أو تراجعاً Sell out عن النسق. إن مداخل البحث التقليديـة في الأنثروبولوجيا تستلزم تطويعها لتتكيف مع التوقعات والأوقات المعاصرة. فـإذا كانـت الإثنوجرافيـا هـي أسـاس العلـم الأنثروبولـوجي، إلا أنهـا تتطلـب تواؤمـاً عمليـاً وبراجماتياً مع المتطلبات والبيئات المختلفة. علاوة على ضرورة استخدام مناهج البحث الجديدة وتنفيذها في الدراسات التطبيقية.

وفـي هـذا الصـدد طـرح فـان مارويجيـك Van Marrewijk، وفينسـوجيك Veenswijk وكليج Clegg مدخل التدخل الشعبي ethnoventionist approach يقوم خلالـه بـاحثو التنظيمـات ذوو التوجيـه الأنثروبولـوجي الشـعبي بالتدخل. وفـي هذا

الصدد أكد سيليتو Sillitoe ضرورة التحول من الملاحظة بالمشاركة Participant Observation، إلى مداخل وطرق تعاونية مشتركة تربط الناس بشكلٍ واعٍ ذي معنى بعملية البحث كشركاء Partners بدلاً من كونهم إخباريين، ومراعاة ما يسمى "المعرفة المحلية"، أو معرفة السكان أبناء البلد الأصليين Indigenous Knowledge، وعلم المواطن والذي يحتفظ بمكان بارز للمنظورات المحلية ويضعها في اعتباره. ولعل هذا المنحى المنهجي وجد تطبيقاً له في دراسة للكاتب عن السيرة الذاتية للقرية المصرية(٢٨). فقد درس الباحث نفسه كمبحوث وإخباري، واستقى الباحث معلوماته من المبحوث ابن القرية من ذاكرته وخبرته المعاشة كشريك في الأحداث، وصانع لها، وخبير بها. وهذا التوجه المنهجي عموماً ينظر للمبحوثين كشركاء، وأصحاب رؤية، ومصلحة وغاية، ستعود عليهم من البحث، مما يضمن ولاءهم وتشجيعهم للمشروع، أو المجال التطبيقي.

التحدي الثالث: كانت الأنثروبولوجيا – وتطبيقاتها – مرمى للاتهامات بسوء السلوك الأخلاقي، بسبب اندماجها في النظام الاستعماري. وقد استخدمت الأنثربولوجيا التدخل في شئون المستعمرات، واعتمدت على مداخل تعاونية ذات الإمكانات الكبيرة، والتي كانت تقدمها الشركات الرأسمالية الكبرى. وقد تكون الاعتبارات الأخلاقية ذات قيمة وأهمية أكبر –في التطبيقات – عن نظيرها في الأنثروبولوجيا الأكاديمية في الجامعات. ومع ذلك، فإن هذا الوضع لا يجب أن يوقف علماء الأنثروبولوجيا عن تطبيق معرفتهم العلمية ومداخلهم المنهجية خارج النطاق الأكاديمي. إن مراعاة الاعتبارات الأخلاقية ضرورة ملحة سواء عند إجراء البحث، أو ممارساته، أو التوصيات الناجمة عنه. أما قاعدة أن "مقاساً واحداً يناسب الكل" one size fits all، فهي تخلق مشكلات، وتفرز صعوبات، وتسفر عن تعقيدات لا حدود لها. ولعل المخرج من هذا المأزق يتمثل في تفعيل التقييمات الفردية، بمعنى احترام تقييم الأفراد لما يرونه، وتأمله ومناقشته. وعلى هذا يجب على علماء الأنثروبولوجيا وتطبيقاتها أن يشاركوا بخبراتهم، ويتبادلوا المعرفة مع بعضهم البعض، فما صلح منها يُستفاد منه، وما فسد نتجنبه. وهذا يسهم بشكل

كبير في اختزال عدم الارتياح الأخلاقي ethical unease بين كلٍ من علماء الأنثروبولوجيا وتطبيقاتها، وجمهورهم، وعملائهم.

التحدي الرابع: ويتمثل في القفزات العلمية، وتجاوز حدود العلم، والأخذ بالاتجاه البيني interdisciplinary، حيث تصبح البينية واقعاً ملموساً. وكما يقول توماس هاي لاند إيركسين Hyland Eriksen " من الأخبار السيئة أن الأنثروبولوجيا لن تقدر على حل الأزمة العالمية، ولكن من الأخبار الجيدة انه بدوننا لن يقدر أي إنسان على ذلك، لأن "معرفتنا الأنثروبولوجية تمثل قطعة محورية في لعبة بانوراما الألغاز أو تركيب القطع Jigsaw Puzzles. لقد تقبل عديد من الأنثروبولوجيين التطبيقيين بالفعل ضرورة العمل والعيش كهجين عقلي intellectual hybrids يتعايشون معاً في نفس المعيشة المشتركة في الأنثروبولوجيا، وفي العوالم الاحترافية الأخرى.

ولتحقيق هذا المسعى، يجب على الأنثروبولوجيين أن يشاركوا في المشروعات البينية، لا بصفتهم ملاحظين هامشيين فقط، ولكنهم أيضاً يقومون بأدوار قيادية تتيح ترسيخ الإسهام الأنثروبولوجي فيما وراء العلم والأكاديميا، وبهذا لا تعد الأنثروبولوجيا بمثابة "زائدة: appendix أو ملحق للمشروعات التطبيقية، ولكنها قوتها المحركة والدافعة.ويأتي على نفس الأهمية، ابتكار فرص جديدة يقدمها الانثروبولوجيون في مجال المنظمات الخاصة والعامة وغير الحكومية. وهنا تزداد أهمية العلم من خلال ما يردده العاملون ويروجون له، وعن طريق اللجان العلمية، وبشهادات من حصلوا على خدمات الأنثروبولوجيين في تطوير منتجاتهم وتحسين خدماتهم وتجويدها، وعن طريق تأسيس روابط بين الثقافات المختلفة داخل المنظمات الخاصة، ومن خلال الإسهام في تطوير المؤسسات الحكومية والمنظمات غير الحكومية.

التحدي الخامس: الاحتياج إلى مضاعفة إثارة الوعي، والارتقاء بأنشطة تحسين الصورة العامة للأنثروبولوجيا، وإظهار ما تحويه من إمكانات ومنافع للمجتمع، والاقتصاد، والبيئة. ومن خلال ذلك فحسب، يمكننا ان نغيّر الرأي العام الأكثر شيوعاً – والذي لا

يزال يردد حتى في أوربا بأن الأنثروبولوجيا علم لا فائدة منه، يتعامل مع الشعوب والعقائد الغريبة "exotic peoples" . أو البقايا الإثنوجرافية. ومن أمثلة ذلك "حدث الممارسة Praxis الإثنوجرافية في مجتمع الصناعة Ethnographic Praxis Industry Community (EPIC)، والذي يُعقد في أماكن عديدة من العالم. علاوة على حدث آخر لترويج Promoting الأنثربولوجيا التطبيقية في أوربا تحت عنوان أو شعار "لماذا يحتاج العالم علماء الأنثروبولوجيا"؟ وينظم الملتقى سنوياً عن طريق EASA شبكة الأنثروبولوجيا التطبيقية.

التحدي السادس: وهو الاحتياج إلى محور أوربي عالمي واسع للأنثروبلوجيا وتطبيقاتها، يمكن بمقتضاه تحويل مداخل البحث وتداولها بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب. وربما تكون شبكة الأنثروبولوجيا التطبيقية (EASA) منصة رئيسية main platform لعلماء الأنثروبولوجيا الأوربية التطبيقيين، كما تسعى في نفس الوقت تجاه تأسيس روابط صلبة مع الشبكات القومية أو القارية خارج نطاق أوربا في المستقبل القريب.

سابعاً: التحديات البينية:

نقدم في هذه الفقرة نماذج من التحديات التي تواجه بعض فروع الأنثروبولوجيا في المجال البيني، ومن ذلك فرع الأنثروبولوجيا الفيزيقية Physical Anthropology وعلم الأركيولوجيا (الآثار والحفريات) Archaeology وعلم التربة Archaeopedology (Soil Science) وعلم وصف التربة Ethnopedology، وعلم أنثروبولوجيا التربة Anthropedology.[٢٩]

في عام ١٩٧٩ أصدر سيمون هيلسون Simon Hillson واحداً من أقدم أعماله عن "الغذاء وأمراض الأسنان"، أثار الاهتمام بدراسة تركيبات الأسنان dentition في داخل علم الأنثروبولوجيا الفيزيقية. ويتزامن ذلك مع التطورات المنهجية الأخرى، ومنها تقدير العمر من خلال تطور الأسنان، والتي قدمها جاستافسون Gustafson وكوك Koch في عام ١٩٧٤. وفي عام ١٩٩٦ كان الإصدار الأول لكتاب هيلسون

أنثروبولوجيا الأسنان Dental Anthropology ذائع الصيت وواسع الاستخدام حتى الآن. وخلال التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، استمرت هذه التطورات، مع الاهتمام بعمل تنويعات وتصنيفات داخل الأنثروبولوجيا الفيزيقية، ولكن مع التأكيد على البحث البيني متعدد العلوم maltidisciplionarry approach، فازدادت الدراسات التطورية في ظل علم فرعي وهو الأنثروبولوجيا البيولوجية، كما ازدادت في نفس الوقت دراسات أركيولوجيا البقايا البشرية.

وكان اكتشاف Otazi المعروف برجل الجليد The Iceman أكثر الاكتشافات أهمية منذ ٥٣٠٠ سنة، وهو المومياء المكتشفة على حدود المجر وإيطاليا في عام ١٩٩١. وفي ضوء هذا الاكتشاف بدأ الأنثروبولوجيون يتعاملون مع المتخصصين في حمض DNA، وخبراء اللقاح Pollen experts وعلماء كيمياء الأرض Geochemists، وخبراء النظائر Isotopes، وغيرهم في جهود مشتركة ومكثفة، ليعرفوا ويتعلموا الكثير عن حياة هذا الفرد. ولعل هذا الاتجاه في العلم الأركيولوجي، وخاصة استخدام DNA وعلم النظائر، سوف يزداد الاعتماد عليه في الأنثروبولوجيا الفيزيقية مع بداية الألفية الجديدة وطوال القرن الحادي والعشرين(٣٠).

وبالإضافة إلى ذلك، كانت المشاركة الواسعة لعلماء الأنثروبولوجيا في المجال، ومعه الحفريات والتنقيب، وتسجيل البقايا البشرية والحفاظ عليها، كانت كلها بمثابة المعيار الحالي المناقض أو المعارض للعمل في المعمل. وقد ظلت مناهج وطرق التقنين مستمرة مع إصدار بوكيسترا وأبلاكير (Buikstra & Ubelaker's 1994) للمستويات التي وضعاها معاً، مع تلك التي قدمها بريكلي وماكينلي (Brickley & Mckinley 2004) ، وصارت ملزمة للتعاون البيني بين علوم مختلفة.

ولعل تطورات أنثروبولوجيا الطب الشرعي، التي تطبق الأساليب والمناهج الأنثروبولوجية الفيزيقية ككل، على البحوث والاستقصاءات الطبية – القانونية Medico – Legal Investigations، كل ذلك ساعد على تطور الأنثروبولوجيا الفيزيقية ككل. وعلى هذا، فقد شهدت العقود الأخيرة تأسيس روابط بينية – بين علوم

مختلفة – واتحادات وجمعيات علمية ترعى الأخذ بهذا الاتجاه البيني. ومنها الجمعية الأوربية لأنثروبولوجيا الطب الشرعي، وجمعية أمريكا اللاتينية لأنثروبولويا الطب الشرعي، وفرع الأنثروبولوجيا لخدمات الأكاديمية الأمريكية لعلوم الطب الشرعي. وقد تعهد كثير من أعضاء هذه الجمعيات والاتحادات بالبحث عن الصدمات Trauma والطرق البيولوجية لتقديم صورة شاملة عن التنميط Profiling، التي تمارس تأثيراً كبيراً على فحص البقايا البشرية الأركيولوجية للهيكل العظمي.

والواقع أن السنوات الأخيرة أحدثت تغيرات ملموسة على ممارسة الأنثروبولوجيا الفيزيقية، فصارت تتضمن أسئلة وقضايا بحثية جديدة، وتحليلاً أكثر هدماً more destructive analysis لما قبله من التقوقع والانغلاق العلمي، والحث على الاستفادة من مناهج ونظريات ورؤى العلوم الأخرى. كذلك فقد تغيرت الاعتبارات الأخلاقية والممارسة على مدار التطورات الفنية والعلمية، التي تتضمن توصيات جديدة بشأن اختيار عينات العظام البشرية.(٣١)

ولعل الحديث عن الأنثروبولوجيا الفيزيقية يستدعي الحديث عن التشريع أي القوانين واللوائح المرتبطة بكيفية التعامل مع البقايا العظيمة المكتشفة، والمخلفات البشرية التي عثر عليها الأنثروبولوجي، أو الأركيولوجي أو غيرهما. وسواءً كان الأنثروبولوجي موجوداً في قلب الحدث، أو كانت تلك البقايا خضعت للدراسة، أم لم تدرس من قبل، ومآل مصيرها (بمعنى إعادة فحصها ودراستها أو إعادة دفنها)، وما المسموح به حيال هذه الحالات، وما القوانين المنظمة لهذا التصرف؟ وهناك تنويعات عديدة، وملامح متشابهة، وأخرى موحدة، فكيف يكون التعامل معها في ضوء اللوائح والقوانين؟ لاشك في ضرورة الاعتماد هنا على علم القانون؛ ما يحرّمه، وما يجرّمه، أي الاتجاه البيني.

إن التشريع الأوربي يتطلب التصريح القانوني للقيام بالحفريات، والسماح بالتنقيب الأركيولوجي. وربما يرجع ذلك إلى معاهدة فاليتا وهي اتفاقية متعددة الدول في عام ١٩٩٢، للمجلس الأوربي، وهي ما يعرف "بالاتفاقية الأوربية لحماية التراث الأثري"، حيث تنص المادة الأولى في المعاهدة على أن "الهدف هو حماية التراث الأثري،

باعتباره الذاكرة الأوربية الجمعية، وباعتباره أيضاً أداة للدراسة التاريخية والعلمية". وبالتالي تظل البقايا الأثرية تحت حماية المعاهدة، ولكنها لم تشر صراحة إلى البقايا البشرية العظمية فهل التعامل معها كالتعامل مع الآثار؟ هنا صارت قضية خلافية وأخلاقية، حتى أن البلدان الأوربية طالبت بضرورة تواجد الأنثروبولوجي في موقع الاكتشاف عند إجراء الحفريات excavations والتنقيب.

على نفس الشاكلة تؤدي الاعتبارات الأخلاقية في مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية إلى مجموعة من القضايا المتنوعة منها مثلاً.[٣٢]

١) هل من الأخلاقيات التنقيب عن البقايا البشرية ودراستها؟
٢) هل من الأخلاقيات إيداع البقايا البشرية في متاحف؟
٣) ماذا عن سوء التعامل مع البقايا العظمية؟
٤) هل نتعامل مع البقايا البشرية باعتبارها أفراداً أو موضوعات أو أشياء؟
٥) هل كل البقايا يمكن إعادة دفنها، أو الحفاظ عليها لدراستها مستقبلاً؟

الواقع أنه ليس هناك إجابة صحيحة على سؤال واحد من هذه الأسئلة على مستوى أوربا خاصةً، والعالم الغربي عامةً. ولكن هناك محاولات تبذلها بعض البلدان الآن للإجابة الصحيحة عليها. ولعل ذلك يتمثل في المجتمعات العربية الإسلامية التي تحيط الموت بالقداسة والحُرمة، وتحترم الموتى كما تحترم الأحياء، بصرف النظر عن السلوك اليومي، ولكن الدين الإسلامي وضع الضوابط الشرعية الحاكمة لكل هذه القضايا. ومن المهم كذلك أن نكون على وعي بالقضايا الأخلاقية النوعية في البلد الذي يعمل الأنثروبولوجي على أرضه. ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الأخلاقيات تحظى بمكانة كبيرة وأن ١٣ دولة من ٤٣ دولة (بنسبة ٣٠,٢%) من بين المساهمين في موسوعة ماركويز – جرانت وفيبجر Marquez – Grant & Fibiger، قد ناقشوا الاعتبارات الأخلاقية في مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية بالتفصيل في بلادهم.

وعلى الجانب الآخر نجد جسوراً أخرى لعلاقة الأنثروبولوجيا بعلوم التربة، والأركيولوجيا، والزراعة وهي تمثل تحدياً آخر. إذ أن هذه العلوم تتحرى المنظورات

المختلفة للنظر إلى التربات Soils على أنها جيدة عموماً، أو أنها تخضع للملكية الخاصة. ولا يقتصر تباين هذه الاهتمامات على نظم المعرفة بالتربة فقط، بل يتضمن كذلك المعتقدات، والأساليب الفنية، وطرق الغذاء، وأساليبه، والممارسات وعلاقات القوة المتعلقة بالتربات وزراعة رقائق الذرة Cereal Cultivation مثلاً، أو القطن، أو الأرز، أو قصب السكر، أو القمح. إنها تشير إلى الحاجة الماسة للاتجاه البيني بين العلوم والإنسانيات. ومع ذلك فهناك حاجة ماسة أخرى إلى التمييز بين البحث البيني الجوهري، وتطبيقات نتائجه في السياق الاجتماعي – الاقتصادي وتفسيرها في نفس الوقت(٣٣). إن فهم نظم المعرفة المختلفة، وتقييمها في الزمان والمكان، صار أمراً ضرورياً، لنعيد تقييم منظورات التربات والزراعة، من أجل مواجهة المشكلات المعاصرة مثل انحلال وتفتت التربة degradation والتعرية erosion، والتملح Salinization، ثم الخسارة العامة – فوق كل ذلك – لخصوبة التربة.

ثامناً: تحديات التغيرات المناخية:

غير أن هناك تحدياً آخر – لا يلتفت إليه الكثيرون – وهو التغيرات المناخية Climate changes. إذ من المعروف أن (٥/١) خُمس طرق الدخول في القرن الحادي والعشرين، تتمثل في سيطرة البشرية على كوكب الأرض، مما يعني لنا أن حقبة التأثير البشري Anthropocene صارت عنواناً للعصر الحاضر، الذي يتسم بالنشاط الصناعي والتوسع فيه. لقد طرأت تغيرات بيئية واجتماعية، بما في ذلك ارتفاع درجة الحرارة بفعل الانبعاثات emissions الغازية للتدفئة greenhouse gases وتسارعت وازدادت منذ تسعينيات القرن الماضي، وهذا يعني ببساطة التدفئة الفائقة للكوكب. وهذا يمثل تحدياً عاماً major challenge لكلٍ منا، سواء تعرفنا على الجماعات القرابية، أو الدول، أو الأديان والإنسانية، أو للنظام البيئي ecosystem للكوكب ككل.(٣٤)

من الصعب أن نتصور أن هناك موضوعاً أكثر أهمية وأشد إلحاحاً من موضوع المناخ في العالم اليوم، لأنه يهدد أحوال المجتمعات البشرية، ولذلك عقدت الهيئات

العلميـة – البحثيـة الأكاديميـة والدوليـة – مـؤتمرات ونـدوات، وصـاغت رؤى، وقـدمت نظريـات، وأجـرت اختبـارات، وطرحـت توصـيات. ومنهـا تقـارير المائـدة المسـتديرة للحكومات الدولية Intergovernmental Panel عن التغير المناخي (IPCC). وأصدرت خمسة تقارير كان أولها في عام ١٩٩٠، وأحدثها في عام ٢٠١٤، وآخرها في عام ٢٠٢٢. وبناءً على ذلك، لم يعد تأثير التغير المناخي يثير اهتمام الدارسين بمفهوم حقبة التأثير البشري فحسب، بل الاهتمام في نفس الوقت بمفهوم معاكس أكثر حداثة، وهو "حقبة التأثير الرأسمالي" Capitalocene. وهو مفهوم صكه جاسون مور Jason Moore المؤرخ البيئي ليعني به توبيخاً للنظام الرأسمالي على المآزق الكوكبية global predicament التي تسبب فيها، ومنها الإفراط في استنزاف الموارد، واللهث وراء الربح، وترجمة الطبيعة إلى موارد قابلة للتكميم، والحرص الشديد على النمو اللانهائي، وهي لا تمثل صفات للإنسانية، ولا خصائص لها.

والمفهوم الثالث صكته دونا هاراواي Donna Haraway ذات التوجه البيني المتعدد، وهو "دعنا نذهب" Chthulucene الذي يشير إلى شبكة أسلاك شائكة entanglements تضم في النهاية كل الأنواع الحية في شبكة الحياة Web life. ولذلك أكدت هاراواي أن وعي كوكبنا بالنكبة الإيكولوجية الوشيكة قد يدفع البشرية إلى إدراك الاستقلال المتبادل لكل مظاهر الحياة، فيفقد كل مظهر منها مساندة المظهر الآخر، وبالتالي ينفرط العُقد، وتضيع الهوية الكلية[٣٥]. ولذلك أثار هذا التغير المناخي اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، ولاسيما النظرية الاجتماعية، نتيجة لتطور النموذج التصوري، وعدم اليقين الذي صاحب الحداثة. فهذا جيدنز A.Giddens يشخص العالم بأنه شارد أو منفلت (٢٠٠٢)، وذاك زيجمونت باومان Zygmont Bauman يؤكد على أن التحديث قد أدى بالخطأ إلى عدم اليقين، وعدم الاستقرار (٢٠٠٠). وذلكم أورليش بيك Ulrich Beck (٢٠٠٩) يرى أن التغير المناخي يضاعف المخاطر الكوكبية الناجمة عن الحداثة.

- الهوامش

(١) على المكاوي، الأنثروبولوجيا الثقافية: دعامة أدب الحوار (٢٠٢٠)، مركز جامعة القاهرة للتعليم المدمج، القاهرة، ص ص ١٥٥-١٦٠. وانظر أيضاً: عاطف وصفي، (١٩٧٥)، الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعارف، القاهرة، ص١٦٤.

(٢) انظر حول أسلوب الاستكتاب في الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية المصدر التالي: "علياء شكري، (١٩٧٨)، التراث الشعبي المصري في المكتبة الأوربية، دار الكتاب للتوزيع، القاهرة، ص ص١٩١- ١٩٧".

(٣) إيفانز بريتشارد، (١٩٦٠)، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة أحمد أبو زيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص ص ١٠٨-١٠٩.

(٤) راجع التفاصيل في: علي المكاوي (٢٠٠٩)، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة التغير والبناء الاجتماعي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ص ص ٢٦٠- ٢٦١.

(٥) شكري نجار، الأسلوب الأنثروبولوجي لدراسة المجتمع، مقال بمجلة الفكر العربي، ص ص ٢٢٦- ٢٣٠.

(٦) علي المكاوي (٢٠٠٧)، الأنثروبولوجيا وقضايا الإنسان المعاصر؛ مدخل اجتماعي وثقافي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، ص ١٨٣.

(٧) شكري نجار، الأسلوب الأنثروبولوجي لدراسة المجتمع، مرجع سابق، ص٢٣١.

(٨) إيفانز بريتشارد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سابق، ص١٢١.

(٩) مذكرات على عزت بيجوفيتش الرئيس السابق لجمهورية البوسنة والهرسك، ترجمة وإعداد محمد يوسف عدس، مكتبة الإمام البخارى للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ص ٣٥ – ٣٦.

(١٠) كارول كوينهان، أنثروبولوجيا الطعام والجسد، ترجمة سهام عبد السلام، المركز القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٤٩.

(11) Joel S. Kahn, Anthropology and Modernity, Current Anthropology, Vol. 42, No. 5, December 2001, p. 652.

(١٢) أندرو إيدجار، وبيتر سيدجويك، (٢٠٠٩)، موسوعة النظرية الثقافية؛ المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص ص١٠٤-١٠٥.

(13) Mark Goodale, Toward a Critical Anthropology of Human Rights, Current Anthropology, Vol. 47, No. 3, June 2006, pp. 485-486.

(14) Brain Keith Axel, Anthropology and the New Technologies of Communication, Cultural Anthropology, Vol. 21. No. 3, Aug. 2006, pp. 354-355.

(15) Ibid, p. 365.

(16) Samnel M. W. Wilson and Leighton C. Peterson, The Anthropology of Online Communities, Annual Reviews of Anthropology, Texas, 2002, pp. 449-452

(17) David Kennedy and Others, Methods for Collective Panel Data: What can Cultural Anthropology Can Learn From Other Discipliness?, Journal of Anthropological Research, Vol. 65, New Mexico Univ., 2009, pp. 453-454.

(18) Ruben George Oliven, (2018), How will Anthropology Cope with the Challenges of a Changing World? Paper presented at the Symposium: "Challenges and Perspectives of Anthropology in the 21th. Century" held at the 18'th world Congress of the International Union of Anthropological and Ethnological Sciences, Florianopolis, Brazil, July 18, 2018, P. 2.

(١٩) المارون Maroons هم أحفاد الأفارقة في الأمريكتين وجزر المحيط الهندي الذين هربوا من الرق، وكونوا قرى خاصة بهم. انظر: Ruben Oliven, ibid, the same Padge.

(٢٠) علي المكاوي (٢٠)، الأنثروبولوجيا الثقافية: دعامة أدب الحوار، مرجع سابق، ص ٢٠.

(21) Dan Podjed, Meta Group and Alenk Bezjak Malker, (2016), Applied Anthropology in Europ: Historical obstacles, Current

Situation, Future Challenges, Anthropology in Action, 23, No.2.(Summer 2016), p. 53.

(٢٢) علـي المكـاوي (٢٠٠٩)، الأنثروبولوجيـا الاجتماعيـة ودراسـة التغيـر والبنـاء الاجتماعي، دار النصر للنشر والتوزيع بجامعة القاهرة، القاهرة، ص ص.

(23) Ruben Oliven, OP. Cit., pp. 3-4.

(٢٤) علي المكاوي، الأنثروبولوجيا الثقافية، مرجع سابق، ص

(25) Dan Podjed et. al., Op. Cit., p. 53.

(26) Ibid, p. 54.

(27) Dan Podjed et. Al. Op. cit., pp. 59-60.

(٢٨) علـي المكـاوي (٢٠٢٣)، "السياسـات الزراعيـة واسـتعادة القريـة المنتجـة: السـيرة الذاتيـة للقريـة المصـرية"، بحـث مقدم إلـى المـؤتمر السـنوي الثالـث والعشـرين: القريـة المصرية بين تراكمات الماضـي وآفاق المستقبل، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ٢٥-٢٧ديسمبر ٢٠٢٣، ص ص ٥-٦.

(29) Sandra Tuber, Martin Bartelheim, Roland Hardenberg, Monica Knopf, Thomas Knopf, Peter Kuhn, Tobias Schade, Karsten Schmidt and Thomas Scholten, (2022), Why Do We Need Interdisciplinary Cooperation With Anthropologists and Archaeologists in Soil Science? J. Plant Nutr. Sol. Sci, (2022), pp. 752-765.

(30) N. Marquez-Grant, H.Webster, J. Truesdell and L.Fibieger, (2016), Physical Anthropology and Osteoarchaeolog in Eurpe; History, Current Trends and Challenges, International Journal of Osteoarchaeology, Pubished Online in Willey Online Library.

(31) N.Marquez-Grant et. al., ibid,

(32) Ibid.

(33) Sandra Teuber, et. al. Op. Cit., P. 752.

(34) Eriksen, Thomas Hylland, (2023), Climate Change, in the Open Encyclopedia of Anthropology, edited by Felix Stein, in the Cambridge Encyclopedia of Anthropology, Online, PP. 1-17.

(35) Ereksen, ibid, pp. 2-3.